الصلات الثقافية بين المغرب ومدينة الاسكندرية
فى العصر الاسلامى

بحث ألقى فى المهرجان
الذى أعد للاحتفال بمرور أحد عشر قرنا
على تأسيس جامعة القرويين
(٥ — ٩ أكتوبر ١٩٦٠)

بقلم
الدكتور جمال الدين الشيال
أستاذ التاريخ الاسلامى بجامعة الاسكندرية
والمستشار الثقافى بسفارة الجمهورية العربية المتحدة — الرباط

باسم جامعة الاسكندرية الفتية أحيي جامعة القرويين العريقة في هذه المناسبة السعيدة . مناسبة الاحتفال بمرور أحد عشر قرناً على تأسيسها ، وجامعة الاسكندرية أحق الجامعات أن تكون لها الصدارة عند تقديم هذه التحية . فلقد كان لموقع مدينة الاسكندرية الجغرافي أثر كبير في توثيق العلاقات بينها وبين بلاد المغرب والأندلس في العصور الوسطى الاسلامية ، فالاسكندرية كانت ثغراً من الثغور الاسلامية الهامة ، وكانت رباطاً كبيراً ترابط فيها — منذ دخلها الاسلام — حامية مسلحة كبيرة ، فقد خصص عمرو بن العاص ربع جيشه لرباط الاسكندرية يقيمون بها ستة أشهر ، ثم يستبدل بهم ربع آخر ، وكان عمر بن الخطاب يرسل كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط في الاسكندرية ، وذلك لأن العرب لم يكونوا يأمنون عليها من غارات العدو بعد أن نقض الروم الصلح مرتين ، وحاولوا الهجوم عليها واستردادها .

وكتب عثمان الى عبد الله بن سعد بن أبي السرح بعد نقض الروم :

" قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية . وقد نقضت الروم مرتين ، فالزم الاسكندرية رابطتها ، ثم أجر عليهم أرزاقهم ، وأعقب منهم في كل ستة أشهر " .

ومن الأقوال المأثورة أن الاسكندرية « كنانة الله يحمل فيها خير سهامه » .

وقال عبد الله بن مرزوق الصدفي :

" لما نعى الي ابن عمي خالد بن يزيد - وكان توفي بالاسكندرية — لقيني موسى بن علي بن رباح وعبد الله بن لهيعة ، والليث بن سعد متفرقين ، كلهم يقولون : أليس مات في الاسكندرية؟ فأقول بلى ، فيقولون : هو حي عند الله يرزق ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا ، وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك " .

فالمسلمون الأول كانوا يعتقدون أن الاقامة في الرباطات والحياة في الثغور نوع من الجهاد ، ومن يموت أثناء مقامه بها فهو شهيد . ولهذا

جذبت الاسكندرية اليها فى العصور الاسلامية عدداً كبيراً من المسلمين ، ومن العلماء بوجه خاص ، ومن علماء المغرب والأندلس بوجه أخص .

كما أن مسلمى المغرب والأندلس كانت تتطلع نفوسهم وتهفو أرواحهم دائماً الى المشرق : منبث الدعوة الاسلامية ، ومقر البلدان المقدسة : مكة والمدينة وبيت المقدس ، وموطن العلم الاسلامى ، ودار العلماء والمعاهد العلمية المختلفة ، فهم كانوا فى شوق دائم الى الرحلة الى هذا المشرق ، وهدفهم الأول أداء الفريضة والحج الى بيت الله ، وزيارة قبر الرسول عليه السلام ، والألمام بالمساجد ومعاهد العلم ، ومقابلة العلماء والأخذ عنهم .

وكان المحط الأول لرحلتهم المشرقية هو مدينة الاسكندرية - الرباط والثغر الاسلامى الكبير - يصلون اليها بعد رحلة طويلة شاقة مضنية ، عبر الصحراء فى المعتاد ، وعلى ظهور السفن فى القليل النادر ، وهم كانوا اذا وصلوها أقاموا فيها فأطالوا الاقامة طلباً للراحة من عناء السفر ، ولزيارة معالمها التاريخية التى كانت تبهر أنظارهم وتتذاك ، مثل المنارة - احدى عجائب الدنيا - ، وعامود السوارى ، والمسلات ، والقصور والكنائس القديمة ، والأسوار الشاهقة وما يتخللها من أبراج وحصون وأبواب ، وأخيراً المساجد التى بنيت فى العصر الاسلامى لتكون معابد يذكر فيها اسم الله كثيراً ومدارس تعقد فى جنباتها حلقات العلم والتعليم .

وكان هؤلاء المغاربة والأندلسيون يستأنفون رحلتهم بعد ذلك فيؤدون الفريضة ، وقد تشوق البعض منهم الرحلة ومباهجها فيتنقلون فى مدن الشرق وأمصاره الكبرى مثل بغداد ودمشق وبيت المقدس وغيرها ، لزيارتها والافادة من علمائها ، ثم يعودون بعد هذه الرحلة الطويلة الى الاسكندرية ليستأنفوا منها طريق العودة الى بلادهم ، ولكن كثيرين منهم - وخاصة العلماء وطلاب العلم - كانوا يؤثرون البقاء فى الاسكندرية واتخاذها وطناً ودار اقامة ، لينالوا شرف المقام فى هذا الثغر والرباط العظيم ، وليستزيدوا من علم يطلبونه ، ولينشروا علماً حصلوه وأصبحوا فيه أئمة وفقهاء وقادة .

وقد زادت صلة الاسكندرية بالمغرب توثقاً منذ أتى الفاطميون بجيوشهم من المغرب وفتحوا مصر واتخذوها مقر الخلافة ، فقد أصبح المغرب كله ومصر والشام دولة واحدة ، ونتيجة لهذا كثرت رحلة المغاربة والأندلسيين الى مصر ، والى الاسكندرية بوجه خاص .

ورغم أن المذهب الرسمي للدولة في العصر الفاطمي كان هو المذهب الشيعي ، ورغم أن الدولة بذلت جهوداً كبيرة لنشر هذا المذهب بين المصريين جميعاً ، فقد ظلت مدينة الاسكندرية مدينة سنية ، وكان المذهب المنتشر بين السكندريين والمعمول به بينهم هو مذهب الامام مالك منذ انتشر هذا المذهب في المغرب وبين المغاربة ، وبتأثير الجوار والرحلة انتقل الى الاسكندرية وساد فيها ، ولهذا نرى أن عدداً كبيراً من علماء الاسكندرية في العصر الاسلامي – المصريين منهم والمغاربة – كانوا مالكي المذهب .

من كبار هؤلاء العلماء المالكية الذين رحلوا من المغرب والأندلس الى الاسكندرية واستقروا بها في القرن الخامس الهجري – أي في العصر الفاطمي – واتخذوها وطناً ودار مقام الفقيه العالم الصوفي الكبير أبو بكر الطرطوشي .

ولد هذا العالم الجليل في مدينة طرطوشة في سنة ٤٥٠ هـ وأخذ العلم أولا عن علماء المغرب والأندلس ، وخاصة أبا الوليد الباجي ، ثم شاقته الرحلة الى المشرق فرحل الى مكة وأدى فريضة الحج وجاور بها وقتاً ، ثم زار بغداد وقت أن كانت تبنى بها المدرسة النظامية فتتلمذ على أساتذتها ، وزار مدناً أخرى كثيرة في العراق والشام ، وانتهى به المطاف الى مدينة الاسكندرية حوالي سنة ٤٩٠هـ فطاب له المقام بها وتزوج من سيدة موسرة من أهلها أهدته داراً فاتخذ من الطابق العلوي سكناً ، ومن الطابق السفلي مدرسة كان يدرس بها العلوم الاسلامية المختلفة وخاصة علم الحديث والفقه المالكي ، وتتلمذ عليه الكثيرون من أهلها ومن الوافدين عليها مدة ثلاثين عاماً نشر في خلالها علماً كثيراً ، وأصبحت الاسكندرية بفضله محجاً يحج اليها طلاب العلم من كل حدب وصوب ، الى أن توفي الى رحمة الله سنة ٥٢٠ هـ ودفن بمدينة الاسكندرية ، ولازال قبره معلماً من أهم معالمها .

وعاصر الطرطوشي في مدينة الاسكندرية عالم كبير آخر أتى الى المدينة يسعى من أقصى الشرق ، من مدينة أصبهان ، ذلكم هو الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد السلفي ، واحد من كبار علماء الحديث الذين عرفهم تاريخ الفكر الاسلامي .

واشتغل السلفي منذ نزوله بالاسكندرية بالتدريس ، وتدريس الحديث بوجه خاص ، وكان يعقد حلقاته أول الأمر في مساجد المدينة ، ولم يلبث أن أقبل الطلاب عليه من جميع أنحاء العالم الاسلامي ، وفي حدود سنة ٥٤٠ هـ بنى له العادل بن السلار ــ الوزير الفاطمي ــ مدرسة خاصة به عرفت أول الأمر بالمدرسة العادلية ــ نسبة الى بانيها ــ ثم عرفت فيما بعد باسم المدرسة السلفية ــ نسبة الى أستاذها وشيخها ــ .

وفي « معجم السفر » للسلفي تراجم لكثيرين ممن تتلمذ عليه من أهل المغرب والأندلس ، وكان بعض هؤلاء وسيلة طيبة لنشر علم السلفي في بلادهم بعد عودتهم ، من هؤلاء : أبو محمد عبد الله بن سليمان بن منصور التاهرتي ، قال السلفي في ترجمته : « كان من الفضلاء في الفقه والأدب ، وله شعر ، وكتب عني من الحديث كثيراً بعد رجوعه من الحجاز ، ثم رجع الى المغرب وروى عني هناك » .

ومنهم أبو الوليد يوسف بن المفضل القبذاق ، ولم يقنع بالأخذ عن السلفي بل سأله أن يكتب بإجازة لسلطان المغرب في ذلك الوقت تاشفين ابن علي بن يوسف بن تاشفين ، فكتبها له .

وأخذ عنه من علماء بلنسية بالأندلس أبو الحسن طارق بن موسى ابن يعيش البلنسي ، قال السلفي في ترجمته : « كان من أهل الصلاح ، وقد أقام بالاسكندرية مدة مديدة ، وسمع على جماعة من شيوخها بقراءتي وبقراءة غيري ، وكتب عني كثيراً ، ثم رجع الى الأندلس وروى به ما سمعه علي وعلى غيري » .

وفي رحيات جامع القرويين ، وفي ربى مدينة فاس الخضر وفي كهوف جبالها كان يتنقل ويعيش في أواخر القرن السادس الهجري الصوفي الكبير

الشيخ أبو يعزى يلنور . وكان الناس يفدون اليه من جميع أنحاء المغرب والأندلس ، يأخذون عنه ، ويستمعون اليه ، ويلتمسون عنده البركات ، وفى مقدمة من وفد عليه القطب الغوث أبو مدين التلمسانى فعاش معه سنين يقتبس من طريقته بالاقبال كل الاقبال على الصوم والزهد والصلاة والتقشف والعبادة ، حتى اذا قبس قبسة من روح أستاذه أبى يعزى رحل الى المشرق ليقبس قبسات أخريات من شيوخ المتصوفة هناك ، ومن سيدى عبد القادر الجيلانى قطب العراق بوجه خاص ، وعاد أبو مدين الى المغرب فأقام فى بجاية ، وذاقت شهرته شهرة أستاذه أبى يعزى ، ولقبه القوم هناك بالغوث ، وتتلمذ عليه العشرات من كبار العلماء ، وفى مقدمتهم الفيلسوف المتصوف الكبير محيى الدين بن عربى والشيخ أبو عبد الله محمد بن حرازم ، أحد شيوخ أبى الحسن الشاذلى .

وقد ولد أبو الحسن الشاذلى فى أواخر القرن السادس الهجرى فى سنة ٥٩٣ هـ فى قرية غمارة بالقرب من مدينة سبته بالمغرب الأقصى ، وينتمى الى قبيلة غمارة احدى قبائل المغرب ، واليها ينتمى كذلك ولى الله سيدى عبد الرحيم القناوى ، قطب مدينة قنا بصعيد مصر .

وقد بدأ أبو الحسن الشاذلى فتلقى الطريقة على يد شيخه وأستاذه أبى عبد الله محمد بن حرازم أحد تلامذة أبى مدين ، ولبس على يديه خرقة التصوف .

وانتقل أبو الحسن الى تونس فدرس بها مدة ثم دخل مدينة الاسكندرية وطوف فى بلدان الشرق العربى ، وكان أثناء تقلبه فى هذه البلدان المشرقية لا يسعى لطلب العلم وحده ، ولكنه كان يبحث عن ضالته المنشودة ، يبحث عن القطب الغوث ، فلما اطمأنت نفسه فى العراق الى شيخه أبى الفتح الواسطى ، شيخ الطريقة الرفاعية — فاتحه بدخيلة نفسه وحدثه عن أمنيته ، ولكن الشيخ أبا الفتح أخبره أن القطب فى وطنه الأصلى ، فى المغرب ، فان كان يبحث عنه حقيقة فليعد الى المغرب ، واستمع أبو الحسن الى نصيحة شيخه وعاد الى المغرب ، وظل يوالى الرحلة والبحث الى أن التقى بالقطب ،

الى أن التقى بشيخه وأستاذه الأكبر الذى أخذ عنه الطريق. وليس على يديه خرقة التصوف ، والذى ظل ينتسب اليه ، وهو الشيخ عبد السلام بن مشيش وأقبل الشاذلى – وهو فى صحبة أستاذه – على العبادة ، فطهر نفسه من حب الدنيا ومن الاقبال على الخلق ، وأقبل على حب الله وفنى فى حبه ، فلما صفت نفسه وأصبح أهلا للولاية ووراثة القطبانية أمره أستاذه ابن مشيش أن يرحل عن فاس الى تونس ثم الى الشرق ، وتنبأ له بما سيحدث له فى مستقبل أيامه ، فقال له : ارحل الى افريقية واسكن بها بلداً تسمى شاذلة فان الله يسميك الشاذلى ، وبعد ذلك تنتقل الى مدينة تونس . ويؤتى عليك من قبل السلطنة ، وبعد ذلك تنتقل الى بلاد الشرق ، وترث القطبانية .

وأقام الشيخ أبو الحسن فى تونس وقتاً ما ثم تركها الى المشرق واستقر فى مدينة الاسكندرية ، وفيها بدأ يلقى دروسه ويعقد الحلقات يعظ الناس ويدعو الى طريقته ومبادئه ، وجذبت اليه هذه الدروس والمواعظ الجلة من علماء المدينة وفقهائها فلازموها ملازمة تامة ، وسيكون هؤلاء التلاميذ فيما بعد . قادة الحياة الفكرية والروحية فى المدينة ، تذكر منهم تلميذه الأثير وخليفته فى القطبانية أبا العباس المرسى ، والشيخ أمين الدين الأسمر والشيخ أبا القاسم القبارى ، والشيخ ابن المنير ، والشيخ أمين الدين جبريل وكثيرين وغيرهم .

وحدث الشيخ ياقوت العرش رواية عن شيخه أبى العباس المرسى ، أن الشيخ أبا الحسن الشاذلى كان يحج فى كل سنة ويجعل طريقه على صعيد مصر ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده الى انقضاء الحج ، ثم يزور القبر الشريف ويجعل طريقه على صعيد مصر ويعود على الدرب الكبير الى الاسكندرية .

ففى مدينة فاس جمع الشيخ أبو الحسن العلم من أطرافه ، وورث روحانية أشاعها فى جنبات المغرب شيوخ أجلاء : أبو مدين . أبو يعزى يلنور ، وأبو عبد الله بن حرازم ، عبد السلام بن مشيش .

وفى الاسكندرية نشر الشيخ أبو الحسن هذا العلم كله وأشاع هذه الروحانية وتخرج على يديه طبقات من العلماء والزاهدين وتكونت فى المدينة مدرسة دينية صوفية تمتاز بطابع خاص ، بدأت بتلميذه أبى العباس المرسى ، ثم خلف من بعد أبى العباس تلاميذ كثر ، نذكر من بينهم ياقوت العرش ، والأباصيرى — صاحب البردة — ، وابن عطاء الله السكندرى .

ولابن عطاء الله فضل كبير على الطريقة الشاذلية ، فهو الذى ترجم لأستاذه أبى العباس المرسى ولأستاذ أستاذه مؤسس الطريقة أبى الحسن الشاذلى ، وهو الذى سجل عنهما معظم مبادئهما وأقوالها فى كتابه المشهور : « لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن » .

وأشهر كتبه جميعاً كتاب « الحكم » ، وبلغ ابن عطاء الله بأسلوبه فى الحكم الذروة القصوى من الابداع والتركيز والتحليل وشرح آداب الطريقة ، فان له فيها منهجاً خاصاً ، فهو لا يعنى بالمعنى وحده ولا بالأسلوب وحده بل هو يعتقد أن للبيان سحراً خاصاً ، لهذا كان يتخير الألفاظ ذات الجرس الخاص والنغم الموسيقى المؤثر ، ومن هنا كان لأسلوبه سحر يؤثر فى قارئى الحكم وسامعيه ، ولهذا ظل كتاب الحكم يقرأ قروناً طويلة فى الجامعتين الاسلاميتين العريقتين : الجامعة الأزهرية وجامعة القرويين وقد انتشر كتابان من كتب تلميذين من تلاميذ أبى العباس المرسى فى المغرب كما لم ينتشر أى كتاب دينى آخر ، وشرحهما الكثيرون من الشراح المغاربة من شيوخ القرويين وتلاميذها ، ذلكما هما كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندرى وقصيدة البردة للأباصيرى السكندرى .

أيها السادة ...

هذه لمحة خاطفة أردت بها أن أضرب المثل ، ولا يتسع المقام للافاضة ، فالحديث طويل والعلاقات الثقافية بين المغرب والاسكندرية تحتاج الى سفر متعدد المجلدات ، وعندما جثم العدو الغاشم على هذه البلاد ابان عهد الحماية انقطعت هذه العلاقات أو كادت ، ثم توجت جهود الملك المجاهد محمد

الخامس وشعبه الكريم بالنجاح ، أوشرقت على البلاد شمس الاستقلال والعزة ، وعادت أواصر الأخوة أقوى مما كانت ، وافتتحت الجامعة المغربية الحديثة ، ووجهت النداء إلى المشرق تطلب أساتذة يتعاونون مع اخوانهم المغاربة على النهوض بهذه الجامعة الفتية ، فكانت جامعة الاسكندرية أول جامعة لبت النداء ، وكان أول أستاذ انتدب من المشرق للعمل في جامعة الرباط هو الزميل الدكتور مختار العبادى — مدرس التاريخ الاسلامى بجامعة الاسكندرية ، ثم أكرمتنى دولتى ، فاختارتنى — وكنت أشغل من قبل كرسى التاريخ الاسلامى بجامعة الاسكندرية — لأكون مستشاراً ثقافياً بسفارة الجمهورية العربية المتحدة . ومهمة المستشار الثقافى الكبرى ، هى العمل على توثيق العلاقات الثقافية بين البلدين ، فالله أسأل أن يوفقنى لتحقيق هذا الهدف السامى حتى تعود العلاقات الثقافية العربية الإسلامية بين المغرب والجمهورية العربية المتحدة مزدهرة قوية كما كانت . بل وأكثر ازدهاراً وأعز قوة مما كانت . والله ولى التوفيق .